المشهد الأول

سهل دمشق الذي يلي باب توما . مضارب من الخيام تبعد عن سور المدينة بحيث لا تصل إليها السهام ولا حجارة المقاليع منه . يرفع الستار لنرى أبان بن سعيد بن العاص طريحاً أمام بعض هذه الخيام ينزف الدم من جرح غائر في صدره ، وعنده زوجته أم أبان بنت عتبة وهي ترعاه وتبكي :

أبان : إنها الشهادة يا أم أبان ، فَفِيمَ البكاء ؟

أم أبان : ما يَحْزنني إلا أنه لما يمْضِ على زواجنا غيرُ قليل .

أبان : تلك مشيئةُ الله يا أم أبان. أراد أن يختصِر لزوجك الطريقَ إلى الجنة إن شاء الله .

أم أبان : ما كان لك أن تَطرُد في أثرهم بعد ما انهزموا إلى بابهم .

أبان : كنتُ أُريد أن أقبِضَ على كبْشِهم توماس الذي كان آخرَهم فِراراً ، فأَجيءَ به أسيراً إلى المسلمين . ولكن العِلْج أمرَ الذي قُدّامه فاسْتَدار لي وشغَلني عنه ، وأسرَعَ هو فرمَاني بهذا السّهم من قريب .

أم أبان : اسمُه توماس ؟

أبان : نعم ، يُقال إنه صِهْر هِرَقْل . آه لو جئتُ به أسيراً إلى المسلمين !

أم أبان : والله لأنتقِمَن لك منه .

أبان : كلا لا تَفْعلي .. إنك تُجاهِدين في سبيل الله لا في سبيلي .

أم أبان : لن يَقَر لي قرار حتى أخرِقَ بسهمي كبدَه .

أبان : أم أبان ، أتحبينني كما أحبك ؟

أم أبان : يا حبيبي بل أكثرُ من ذلك .

أبان : فأَخلِصي إذن لله جهادَك ، يكْتُب اللهُ لك أجرَ المجاهدين الصادقين .

أم أبان : ما أنا بتارِكَتِه والله حتى أخرقَ بسهمي كبدَه !

أبان : لا تكوني مثل آكِلَة الأكباد يوم أُحد .

أم أبان : إنها لأختي هندُ بنت عتبة .

أبان : أنت لستِ مثلُها .. أنت نشأْتِ في الإسلام .

أم أبان : كانت هي يومئذ مع المشركين على المسلمين .

أبان : ذلك أعْذَرُ لها من دونك .

أم أبان : وكانت تريد أن تأكُلَ كَبِدَ حمزة ، أسدِ الله وعمِّ رسولِ الله .

أبان : لو أنَّها لاكَتْ كبِدَ عبدِها وحْشِيّ ، لكان قَبِيحاً كذلك عند الله وعند رسوله .. إن ديننا يا أم أبان لَينْهى عن المُثْلة والانْتِقام .

أم أبان : ما خَطْبُك يا زينَ الشباب ؟ أتكرهُ أن أقتلَ

قاتلك إذا أمكنني اللهُ منه ؟

أبان : افْعَلي ذلك إن فَعلْتِهِ في سبيل الله لا في سبيل أبان ابن سعيد .

(يظهر شُرحبيل بن حسنة)

شُرَحْبيل : كيف حَالُه يا أم أبان ؟

أم أبان : كما ترَى أيها الأميرُ .

أبان : أيها الأمير لا يَشغَلنك أمْري ، فإني مُودِّع عما قَريب . اذهب ، فانظرْ فيما أمامك من شؤونِ الجنْد ، فعندي أم أبان .

شرحبيل : طُوبى لك يا أبان بن سعيد ! هَنِيئاً لك الشهادة !

أبان : ادْعُ الله يا ابن حَسَنة أن يقْبلَها .

شرحبيل : اللهم اجعلْ عبدَك أبانَ بن سعيد من شُهَدائك الأبرار .

أبان : آمين .. وحاجةٌ أخرى أطْلُبُها منك .

شرحبيل : اقترحْ يا أخي .

أبان : إذا ما لقيتَ الخليفةَ أبا بكر غداً أو كتبْتَ إليه ، فأقْرئه مني السلام ، وقلْ له إن آلَ سعيد بن العاص يرجون أن يستغفر المسلمون لهم ، وينسَوْا زَلّة خالد بن سعيد .

شرحبيل : رحم الله خالدَ بن سعيد ! لقد وهَبَ المسلمين حياته يوم مَرْج الصُّفَّر ، فكفر عن زَلّته .

أبان : على ذلك يا ابن حسنة بلِّغ الخليفة ما قلْتُ لك .

شرحبيل : سأفعلُ يا أبا سعيد .

أبان : وجَوادِي مرنان .

شرحبيل : ما باله ؟

أبان : إنه جواد كريمٌ ، هو الذي رَجع بي إليكم إذْ أُصِبْتُ ولولاه ما رجعْتُ ، فأنْشُدك بالله إلا ما أعْطَيته لمن تراه أجْدَرَ به من المسلمين .

أم أبان : أو من المسلماتِ ؟

أبان : أو من المسلمات .

شرحبيل : سأفعلَ يا أبا سعيد .

أبان : وادْعُ الله أن يُعجِّل لي بالراحة .

شرحبيل : صبْراً قليلاً يا أبا سعيد ، فإن لكل ألَمٍ تحسُّه ثوابَه عند ربِّكِ !

أبان : إني إنما أريدُ الراحةَ لكم لتفرُغوا لشانكم .

أم أبان : (تبكي) ليس لي شأنٌ غيرُك يا أبان .

أبان : بلى يا أم أبان ، إنك في سبيل الله .

صوت : (يسمع من قريب) يا شُرَحْبيل بن حَسَنة ! يا شُرَحْبيل !

شرحبيل : من ؟ رومانوس ! اقْتَرِبْ يا أبا الروم !

رومانوس : (يدخل من جهة اليمين) السلام عليكم .

شرحبيل : وعليك السلام ورحمة الله . مِن أينَ يا رومانوس وإلى أين ؟

رومانوس : من أين وإلى أين ؟ من أحدِ الأبْوابِ السبعةِ إلى أحد الأبواب السبعة . إني أدُور بينها كالنَّحْلة .

شرحبيل : أعانَكَ الله وقوّاك . خذْ حِذْرَك يا أبا الروم ، فقد بلغني أن الروم جعلوا جائزةً لِمَنْ يأتيهم برأسِك .

رومانوس : لو لم أكُنْ أسلمت لروَّعَني ذلك ، أما بعد إسْلامي فلا أبالي .

أبان : (بصوت خافض لزوجته) اعْجَبي لهذا الرومي كيف خالَطَتْ قلبَه بشَاشَةُ الإيمان .

شرحبيل : إلى أيّ بابٍ أنت ماضٍ الساعة يا أبا الروم ؟

رومانوس : إلى البابِ الشرقي ، فهل لديْك من شيْءٍ تُريد تبْليغَه إلى أميرنا خالدِ بن الوليد ؟

شرحبيل : إن كان يُمدّنا ببعضِ الرجال ، فإن توماس هذا يُغادينا أو يُراوِحُنا منذ يومين .

(يسمع جَلَبة من بعيد)

شرحبيل : ما هذا يا رومانوس ؟

رومانوس : (يستطلع) هذا توماسُ يخرج بكوْكَبَتِه .

أم أبان : توماس ؟

شرحبيل : لا تُرَعْ يا رومانوس ، فإن رَجالَنا على تعْبِئة .

أم أبان : (تنهض من عند زوجها) والله لأقتلنّه .

أبان : أم أبان !

أم أبان : والله لأقتلنه في سبيل الله . بالله يا شُرحبيل دُلَّنِي على توماس.. أين هو ؟ أيّهم هو ؟

شرحبيل : مكانك أنتِ سأكْفِيكِ إيّاه .

أم أبان : كلاّ لن يقتلَه غيري .

شرحبيل : إني أخْشَى عليك .

أم أبان : تخْشَى عليّ من الشَّهادةِ ؟

شرحبيل : أخشى عليك من الأسْرِ .

أم أبان : لا تخَفْ . هذا قَوْسِي وأنا أجيدُ الرمايةَ .

شرحبيل : لا بأسَ إذن ، فعسَى الله أن يُظفِرك بـه .

أم أبان : أين هو ؟ أيهم هو ؟

شرحبيل : هو ذاك يلعبُ بفَرَسِه وأمامه حاملُ الرايةِ .

أم أبان : ذاك الذي يرْتدِي السّواد؟

شرحبيل : أَجلْ .

أم أبان : ائْذَن لي يا أبان ، لن أغيبَ عنك طَويلاً .

(تخرج)

(تُسْمَعُ من بعيد ضَوْضاءُ القتال) .

شرحبيل : يَخْرجون مرّتين في يوم واحد .

رومانوس : هذا خيرٌ يا شرحبيل .

شرحبيل : خير ؟

رومانوس : إن الجَهْد قد بلغَ بأهل دمشق كلَّ مَبْلغ . نحن محاصِرُون لها من أبوابها السبْعة، وكانوا يأمَلون في مَدَدٍ يُرسله هرقل من حِمْص ، فلما قَضَى ذُو الكِلاع الحِمْيَري على المدد الذي أرْسلَه هرقل ، أيِسُوا من ذلك . وكان لهم

مَسْرب من طَريق الجبل يَتسَلَّلون منه ، فقطَعَه عليهم خالدٌ ، ورتّب حَرَساً لمراقَبتِه بالليل وبالنهار .

أبان : (يتمتم) اللّهم انْصُر المسلمين.

شرحبيل : وَيْ ! قد حَمِي الوَطِيسُ فائْذَن لي يا أبا سعيد .

أبان : اذهب مُصاحَباً يا شرحبيل .

شرحبيل : ابْقَ عند أبي سعيد يا رومانوس .

(يخرج) .

رومانوس : لو نستطيع أن نصنعَ لَك شيئاً يا أبا سعيد.

أبان : اللهُ يصنعُ لي الشهادة يا رومانوس ، هي خيرٌ وأبقى . ادْنُ مني يا سيِّدَ الروم ، فإن النظر إلى وجْهِك يَزيدُني إيماناً وتَثْبيتاً .

رومانوس : هل لَقيتَ أنت رسول الله ﷺ يا أبا سعيد؟

أبان : نعم .

رومانوس : يا ليتني لقيتُه مثلك .

أبان : أنت أفضلُ مني يا أَخا الروم .

رومانوس : أفضل منك ؟

أبان : ومن كلّ هؤلاء . إنك لم تَرَ النبيَّ ﷺ ، ولم تسمعْ منه ، ومع ذلك آمنْتَ به .

رومانوس : أَتدْري ماذا يَزْعُم الروم عني؟ يزعمُون أنني أَسْلَمتُ من أَجْلِ الدنيا .

أبان : ويلهم. كنْتَ حاكِمَ بُصْرى فتركتَها وجئْتَ تجاهِد معنا في سبيلِ الله ،فأينَ الدنيا ؟

أصوات : (من بعيد) الله أكبر ! الله أكبر !

رومانوس : (ينظر إلى جهة الشمال حيث تَدُورُ المعركة) الحمد لله قد انهزمَ العدوُّ !

أبان : تُرى ماذا فعلتْ أم أبان ؟

رومانوس : ها هي ذي قادمةٌ يَخِبُّ بها الجوادُ ، وهذا شُرَحْبيل من خلفها .

أبان : الحمد لله .

(تدخل أم أبان فتدنو من زوجها وهي باكيةٌ)

أبان : ما خَطْبُكِ ؟ ما يُبكيكِ ؟

أم أبان : لقد أردت أن أبشرك بقتلِ قاتلك ، فلم أُوفَّق .

شرحبيل : (يدخل) بل احمِدي الله يا أم أبان ، فقد كنْتِ سببَ انهزامهم .

أبان : (مستفهماً) كيف ؟

شرحبيل : رَمَتْ سهماً فأصابت يدَ الذي يحمل الراية لتوماس ، فسقطت الرايةُ .

أم أبان : كنت أريد أن أُصيبَ توماس فأخطأْتُه .

شرحبيل : فقد أصبْتِه بسهمك الثاني .. أصبْتِه في عيْنِه اليمنى .

أم أبان : كنتُ أُريدُ أن أُصيبَه في كبده .

أبان : (كالمُعاتِب وقد بدأ يَثْقُل لسانُه) أم أبان!

أم أبان : في سبيل الله يا أبان .

أبان : قد أبلَيْتِ اليوم بلاء حسناً ، فقَرِّي عيناً .

أم أبان : لن تَقَرَّ عيْني حتى أقتلَه .

أبان : (ينظر إليها كالمُعاتِب ولا يَسْتطيعُ الكلامَ) ...

أم أبان : (تنكَبُّ على رأسه باكيةً) في سبيل الله يا أبان ! في سبيل الله !

المشهد الثاني

خيمة خالد بن الوليد أمير جيش الشام ، أمام البـــاب الشرقي من أبواب دمشق . (يرى خـــالد بن الوليد وعنده رومانوس وقد أجلسه إلى جانبه ، وهما يتحدثان) .

خالد : (في أسىً) رحم اللهُ أبانَ بن سعيـد ! نِعْم الفتى من قُرَيْشٍ هُوَ . (يضرب على كتف رومـانوس في مودة) يا أبا الروم ستَبيتُ الليلةَ عندنا في المعسكر .

رومانوس : إن شئتَ يا أميرَ الجيش أدّيْتُ الرسالةَ في هذه الليلة .

خالد : بـل كُفِيتَ فلنسْتَرِحْ يا أبا الروم ، فلَعلّي

أحْتَاجُ إليك . (ينهضُ حتى يصل إلى باب الخيْمة فينـادي) يا ضِرَار بن الأَزْوَر ! يا ضرار بن الأَزْوَر !

صوت : نعم أيها الأميرُ .

خالد : تعالَ هنا عِندي . (يعود إلى مجلسه)

(يدخل ضِرار)

خالد : أَصْـــغِ يا ضِرارُ إليّ . اخترْ من أَوْسَط رجالِنـا مائةً فانطلقْ بهم الساعـــة إلى شُرَحْبيل بن حَسَنة ، ثم انطلق أنت إلى أبي عبيدة وسائر الأمراء فلْيبعث كل منهم مائة رجل لِنجْدة شرحبيل . لا تطلُعَنَّ الشمس غداً إلا وهؤلاء الرجال عند شرحبيل.

ضرار : سمعاً أيها الأمير . (يهم بالانصراف)

خالد : على رِسْلك . هذا صاحبنـا رومانوس الذي آثرَ اللهَ ورسوله والجهاد في سبيله على مُلك بُصرى ودنيـا الروم ، فاصْحَبه إلى رَحْل

القَعْقَاع بن عَمْرو فهو ضيف عليه، ولولا المهمة لآثَرْتُك به.

(يخرج ضرار ورومانوس).

خالد : (يفتح باب الخباء الجانبي فينادي) يا أم تميم!

أم تميم : (صوتها) لبَّيك يا أبا سليمان.

خالد : تعالَيْ أنت وضيفك.

(تدخل أمُّ تميم وأم حكيم وزوجها عِكْرِمةُ ابن أبي جهل وابنه عمرو).

خالد : (لعِكْرِمة وأم حكيم وعمرو) مرحباً مرحباً بالحبيب والحبيبة، وبابن الحبيب والحبيبة.

عكرمة : كيف أنتَ يا أبا سليمان؟

خالد : أبا سليمان؟ لعلك تريد مني أن أقولَ لك يا أبا عمرو؟ يا رجل قل يا خالد. ويْحَك ليس بيننا مِنْ غريبٍ. كلنا من بني مَخْزُوم.

أم تميم : أنا لستُ من بني مَخْزوم يا خالد.

خالد : (في رِقَّة وتَدْلِيل) صدقتِ. كيف غَرَب عني ذلك؟

أم حكيم : بلى، أم تميم قد أصبحت منا يا خال.

خالد : صدقتِ يا ابنـــة أختي.. هذه تَوْأَمُ نفسِ خالك. وإنها لغاليةٌ.

أم تميم : (كالمنكِرَة) غاليةٌ؟

خالد : أَجَلْ..ألستِ أنت التي أَثَرْتِ عليَّ الدنيا؟

أم تميم : بل أنت الذي أَثَرْتَها على نفْسِك.

خالد : والله ما أَثارَها عليَّ غيرُ ابن الخطاب!

عِكرمة : عفا اللهُ عما سَلفَ يا خالد.

خالد : كان يريدُ أن يرجمني بأحجار من أجلها، كأنما لم أَبْنِ بها على كتابِ اللهِ وسُنةِ رسوله.

عِكرمة : ذلك بحسب ما بلغه من أنبائِك يومَذاك، وإنك لَتعْرِفُ شدةَ عمر في الحق.

خالد : الله يعْلَمُ أني ما قتلتُ مالكاً إلا على الكفْرِ،

وما تزوجت أم تميم إلا بعد مـــا انقضَت عدَّتها منه .

عكرمة : دعنا يا خالد من هذه الأحاديث .

خالد : إنك لا تحب أن نذكر ابن أختنا بسوء .

عكرمة : أما إنه لرجل عظيم ، وإن من حظنا أن ولدته مخزومية .

خالد : والله لقد صدقت . والله إني لأحبه وأبغَضُه في آن واحد . (ينظر إلى سقف الخيمة كأنه يتخيل شيئاً) إني لأتخيَّله يقول الساعـــة للخليفـــة أبي بكر . (يقلّد صوت عمر) يا خليفة رسول الله ، ألا تَرَى إلى ابن الوليد كيف ظل يحـاصرُ دمشق منذ ستة شهور ، فعطّل جيوش المسلمين في الشام .

عكرمة : يا ابن عمي إنك لتتخيّل أشياء ليست تقع .

خالد : لِمَ لا ؟ ألا تعلم أننا ظللنا نحاصر هذه المدينة

منذ ستة شهور ؟

عكرمة : بلى ، ولكن هذا الذي قُلتَه على لسانِ عمر .

خالد : والله إن يكن قد قال ذلك لقد صدق . أواه ! إن أشدَّ ما يملأ نفسي ضيقاً وغمّاً ، أن أرى مدينـةً محصّنة ذات خنـادق وقناطر وذات أسوارٍ وقـــلاع من الحجر الصّلْد ، يحتمي داخلها العدو كما تحتمي السُّلحْفاة داخـــل دِرْعها . بَيْد أنك تقلب السلحفاة على ظهرها فتجد مَنْفَذاً إليهـا ، ولكن كيف تقلب المدينة ؟؟

عمرو : نَقْلِبُها يا عم إذا نامتْ .

خالد : (مُعجباً) ما تقولُ يا ابن أخي ؟ إذا نامت ؟

عمرو : أَجَلْ إذا نامت ونام حراسُها .

خالد : أما إن ابنك لنَجيب يا أم حَكيم .

أم حكيم : لا غَرْو يا خال ، فهو مخزومي الأبِ والأمِّ .

خالد : (يطْرَبُ لكلمتها) بُورِكت يا ابنة أختي بوركت. لقد قلت الحق ورَبِّ الكعبة. والله إن في كلام هذا الفتى لعقلاً.

عِكْرِمة : وهل ينام الحراسُ يا خالدُ؟ إنهم ليَتناوبُون الحِراسةَ.

(تُسمع حركةٌ عند الباب وأصواتٌ)

خالد : انظُرْ من بالباب يا عَمْرو.

عمرو : (يذهبُ نحو الباب ويغيبُ قليلاً ثم يعودُ) هذا الحَرَسِيُّ المُوكَّل بمراقبة الجبل، قد جاء معه بأسيرٍ من العدُوّ.

عكرمة : (ينهض) سنقومُ يا خالد ونتركُك لعملك.

أم تميم : هلموا إلى الخباء الجوّاني إلى أن يفرغ خالد.

خالد : ذلك خير، فإني أشتهي أن أسْمُر معكم بعد.

(يخرج الأربعة)

خالد : ادْخُلْ يا حرسيّ.

(يدخل الحرسي يسوقُ فَتىً وَسِيماً في نحو العشرين من عُمره)

الحرسي : أيها الأمير هذا جاسوسٌ وجدناه في طريق الجبل.

الفتى : كلا يا سيدي الأمير ما أنا بجاسُوس. أَحْلِفُ لك بالصّليبِ ما أنا بجاسوس.

الحرسي : وجدناه يُومِيء بيديه إلى أصحابه داخلَ المدينة، فلما قَبَضْنا عليه صاح بأعلى صوته لِيُنذِرَهم: «قد أسِر الطائر» فلا ريْب أنه كان يتجسّسُ علينا.

الفتى : إنما كنتُ أُومِيءُ لحبيبتي يودوقيا.

خالد : يودوقيا؟

الفتى : هذا اسمُها يا سيدي الأمير، فلما قبضُوا عليَّ أنذرتها لتعودَ إلى المدينة.

الحرسي : إنما زعم ذلك رَجاءَ أن نُطلق سراحه.

خالد : يا حارس دعْني وهذا الفتى، وانتظِرْ أنت

بالباب .

(يخرج الحرسي)

خالد : (ينظر إلى الفتى كأنه يَعْجُمُه) تعال اجلس هنا بقُربي لا تخفْ .

(يجلس الفتى بعد تَردّد)

إن صَدَقْتني القولَ أكرمْتُكَ وأطلقْت سراحك، وإن كَذَبْتني فالويل لك .

الفتى : والله يا سيدي الأمير إن الذي قُلتُه لكم لَحَقّ .

خالد : إني لأراكَ عربيَّ الوجْهِ واللسانِ ، أفأنت من غسّان ؟

الفتى : لا يا سيدي الأمير . أنا من تَنُوخ .

خالد : ماذا كنتما تصْنعان أنت وحبيبتَك !

الفتى : كنا نريد أن نهربَ من دمشق .

خالد : إلى أين ؟

الفتى : إلى أي مكان يمكننا أن نتزوجَ فيه .

خالد : وما يمنعكما من الزواج في دمشق ؟

الفتى : أبوها لا يريدني . يريد أن يُزوجها لأميرٍ من بيت هرقل .

خالد : ومَنْ يكون أبوها ؟

الفتى : أبوها هو توماس صِهْرُ هرقل .

خالد : فأمُّها بنتُ هرقل ؟

الفتى : لا يا سيدي، هي قريبةُ هرقل لا ابْنته . ولكن الفتاةَ تحبني وأنا أحبها، وقد تعاهدنا في كنيسة مريم العذْراء ، وأمام تِمْثالها المقدّس ، ألاّ يتزوج أحدُنا إلا من الآخر حتى نموتَ .

خالد : أتدْري ماذا أصابَ توماس اليوم ؟

الفتى : (في اهتمام) لا يا سيدي ، فقد هربْنا حينما خرج هو لقتال أصحابكم. فهل قُتل يا سيدي؟

خالد : لم يُقتل ولكن أُصيبت عينه .

الفتى : (في أسىً) يا ويح يودوقيا ! ستعود إلى بيتها

فتجد أباها مُصاباً في عينه .

خالد : يا فتى ما أراك إلا صادقاً ، وقد وعدتك أن أُطلقَ سراحَك فاذهب حيث شئتَ .

الفتى : ما أصنعُ الآن بالذهاب وحْدِي ؟

خالد : عُدْ إليها في دمشق .

الفتى : لا أستطيع أن أعودَ يا سيدي الأمير .

خالد : لا تخفْ .. سَنُرسل معك من يُوصلك إلى مَأْمَنك .

الفتى : إن توماس رجلٌ شرير ، وهو يكرهني ويريد التخلّصَ مني . فويل لي منه إن علم أنني حاولت الفرار بابنته . وإذا علم أنني كنت عندكم ، فلن يتورّعَ عن اتهامي بالتجسُّس لكم لِيدفعَ بي إلى الموت .

خالد : فماذا أستطيع أن أصنعَ لك يا بني ؟

الفتى : تأْذَنُ لي أن أبْقَى عندكم حتى تَدْخلوا دمشق فأدخلها معكم على أن تَمْنعُوني من توماس

وشرِّ توماس .

خالد : لك عندنا ما تحب يا ... ما اسمك ؟

الفتى : يونُس يا سيدي .. اسمي يونس .

خالد : لم لا تُسلم فتكونَ واحداً منا ؟

الفتى : دعْني يا سيدي أَبْقى على ديني .

خالد : كما تُحب يا يونس .

المشهد الثالث

في خيمة خالد .
خالد يعقد اجتماعاً خاصاً لخاصة رجاله ، فيهم القَعْقَاع بن عمرو التميمي ، وضِرار بن الأزور الأسدي ، ومذعور بن عدي العجلي ، ورافع بن عميرة الطائي .

خالد : أنشدْني يا قعقاع أبياتَك : لله درّ رافعٍ أنّى اهتدى ...

القَعْقَاع : لله در رافـــع أنّى اهتدى
فوّز من قراقـــرٍ إلى سُوى
خَمساً إذا ما سارها الجيش بكى
ما سارهـا من قبله إنسٌ يُرى

خالد : ولكني يا قَعْقَاع أقول :

لا درَّ درّ رافـــع أنى ثَوَى
بباب جِلّقٍ على غير جدَى

رافع : وما ذنبي أنا يا أبا سليمان ؟

خالد : أليس من العَجْزِ يا قوم ، أن نقطعَ تلك الفَيافي الفِيح التي تَرْهبُها الجن وتحارُ فيها الأدلة في خمس ليالٍ ، ثم نقبَع دون أسوار هذه المدينة ستة شهور طوال؟

رافع : بلى والله ، ولوَدِدْتُ لو أستطيع أن أهديَكم فيها إلى سبيل .

خالد : السبيلُ أمامنا واضحٌ .

الجميع : ما هو ؟

خالد : أن نقْتحِمَ المدينـة .

ضرار : من بابها هذا ؟

خالد : نعم .

مذعور : هلاّ من باب آخر فيكون أسهلَ علينا؟

ضرار : أجل. هذا أصعب أبوابها اقْتِحاماً. ألا ترَى إلى هذا السور المَنِيع ، وإلى هذه الحصون بعضها فوق بعض، وإلى هذا الخَنْدق يفْصِلُنا عن السور يجري فيه هذا النهر ؟

خالد : ذلكم أحْرَى أن يُؤْتَوْا من قِبَلِه ، فمن مَأْمَنِه يُؤتَى الحَذِر .

القعقاع : لم لا نَنْتظر قليلاً يا أبا سُليمان ؟ فإن المدينة في كَرْبٍ عظيم ، ولن يمضي غيرُ قليل حتى يتقدم أهلُها بطلب الصلح .

خالد : ويحك يا قعقاع ، لا أُريد أن يُقالَ غداً إننا عجزنا عن فتح دمشق إلا بالصُّلح بعد أن

نَفَدتْ أقواتُ أهلِها. يجب أن نأخذَها عَنْوة قبل أن يطلبوا الصلح .

القعقاع : ما إخالك يا أبا سليمان إلا قد اهْتَدَيْتُ إلى خطة .

خالد : نعم .. خطة ليست جديدة . كانت تدُور برأسي من زمن بعيد ، ولكني كنت أتحيّن الفرصة ، وقد ساقها الله إلينا اليوم . هذا الفتى الدمشقي أخبرني أن حاكمَ المدينة قد وُلد له غلامٌ ، وأنهم سيحتفلون عَشِية اليوم السابع لمولده ، فيشربون ويقْصِفون .

القعقاع : ولكن ما هي الخطة ؟

خالد : سنصْنعُ حِبالاً كهَيئةِ السَّلالِيم ، ونتخذُ أوْهاقاً ونهبِط إلى الخندق وعلى ظهورنا

القِرَب تساعدنا في العَوْم ، ثم نَرمي الأوهاق إلى الشُّرف النـاتِئَـة على السور ، حتى إذا عَلقت بهـا تسلّق أحدُنا إلى أعلى السور فاثبتَ تلك السلاليم من الحبال ، فرقَيْناها واحـداً بعد واحد ، ثم انحدرْنا إلى البـاب فأَنَمْنا من يحرسُه من الجند، وفتَحْناه ليدخلَ سائرُ الجيشِ .

رافع : لله دَرُّك يا أبا سليمان ! هذه خطة لا تعرفها الجن .

خالد : فإني أوصيكم بكتْمانهـا سِرّاً بيننا لا يتعدّانا نحن الخمسة .

الجميع : سنفعل يا أبا سليمان .

خالد : لا أدعُكم حتى تَحْلِفوا معي والله العظيم ..

الجميع : والله العظيم ..

خالد : لا أُفْشِي هذا السرَّ لأحدٍ من المسلمين ولا من غيرِ المسلمين .

الجميع : لا أُفشِي هذا السر لأحد من المسلمين ولا من غيرِ المسلمين .

المشهد الرابع

في وسط دمشق بالمقسلاط عند كنيسة يوحنا المعمدان .

يلتقي خالد وأبو عبيدة ومع كل منهما رجاله، وبينهم معاذ بن جبل لا يفارق أبا عبيدة .

أبو عبيدة : يا أبا سليمان ! يا أبا سُليمان ! إني صالحتهم فمُرْ رجالَك أن يكُفوا عنهم .

خالد : لكنا فتحْناها عنوة يا أبا عبيدة .

أبو عبيدة : الصلحُ خيرٌ يا أبا سليمان .

خالد : لقد خدَعُوك يا أبا عبيدة .

أبو عبيدة : (يترجّلُ عن جواده) ألاَ تنزِل يا أبا سليمان حتى أتحدثَ إليك من قَريب ؟

خالد : (ينزل عن جَواده) حُبّاً وكرامة .

أبو عبيدة : هَلُمّ نجلسُ على هذه المصطبة . (يجلس هو وخالد على مَصْطبةٍ في فِناءِ الكَنيسة ويأخذ بعضُ الرجال جَوادَيْهِما منهما) .

خالد : إنما صالحُوك بعد ما علِمُوا أننا اقْتَحَمْنا البابَ الشرقي .

أبو عبيدة : لا باس يا أبا سليمان . ذلك أحْرى أن يَفُوا بشُرُوطِ الصلح ولا ينقُضُوه .

خالد : لولا استَشَرْتني قبل إبْرامه ، فقد كان ينْبَغي أن أعلمَ .

أبو عبيدة : ستَعْلم غداً ما حملني على التعْجيل بإمْضائه فتعْذُرني .

خالد : غداً ؟ وماذا يمنعُك أن تُعْلِمَنيه اليوم ؟

أبو عبيدة : (في حَيْرة وتردّد) اليوم ؟

خالد : إذا شِئْتَ .

أبو عبيدة : (كأنه يَجد الخلاصَ من حَيْرته) خَشيتُ يا أبا سليمان أن يَعدِلُوا عن طلب الصلح ، فأمْضيته وأنا أعـــلم أنك لن تَنقُضَ أمراً أبرَمه أخوك أبو عبيدة .

خالد : مَعاذَ الله يا أبا عبيدة أن أنقُض أمراً أبْرمتَه ، فأنت أمينُ هذه الأمـة ، ولكني ظننْتُ أن أبا بكر قد ولاّني أميراً على جيش الشام كُلِّه ، لِتَرْجعُوا جميعاً إليّ .

أبو عبيدة : والله يا أبا سليمان ما أردت أن أفْتاتَ على على إمارَتِك ، فأنت أميرُ الجيش كلِّه ، وما أنا إلا رجلٌ من المسلمين . ولكني سمعتُ رسول ﷺ يقول : يُجيرُ على المسلمين أدْناهم . وكان ﷺ يُسارِعُ إلى قَبُول الصُّلح .

خالد : يا ضِرار بن الأزور .. مُرْ رجالَنا بالكَفّ عن القتال في كل مَكان .

أبو عبيدة : جزاك الله خيْراً يا أبا سليمان ..

خالد : فكيف نصنَعُ الآن بهذه المدينةِ ؟

أبو عبيدة : نعْتبرُها كلَّها صلحاً ، فالصلح خير .

خالد : كلا ، إن في ذلك غَبْناً كبيراً على المسلمين .

أبو عبيدة : يرْحَمُك اللهُ يا أبا سليمان . إنا معْشرَ المسلمين لا نُريد عُلُوّاً في الأرض ولا فسَاداً والعاقبةُ للمتقين .

خالد : ما تقول يا أبا عبيدة لو احْتكَمْنا في ذلك إلى خَليفة رسول الله ؟

أبو عبيدة : (في شيء من الاضْطِراب) إلى خليفـــة رسول الله ؟

خالد : نعم نَكْتُبُ إليه بما حصل فيَرَى رأْيه .

أبو عبيدة : قد رضِيتُ ، فلنكتُب في ذلك إلى الخليفة .

خالد : وعلام صالحتَهم يا أبا عبيدة ؟

أبو عبيدة : على أن يدفع أهلُها الجزْيةَ ، ولهم الأمانُ على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم نَحميها

لهم بما نَحْمِي به أنفسَنا . وعلى أن للروم منهم أن يَخرُجوا من المدينة ، ويحْمِلُوا ما شاءُوا من مالٍ ومتاعٍ في خِلال ثلاثة أيامٍ .

خالد : ومن سلاحٍ ؟

أبو عبيدة : ومن سلاح .

خالد : عفا الله عنْك ، لِمَ سمحْت لهم بذلك ؟ أيَخرُجون بأسلحتهم ليحاربُونا بها غداً ؟

أبو عبيدة : غَفَرَ اللهُ لك ، وهل يعْجز هرقل أن يجدَ من السلاح فوق ما يحتاج إليه ؟

خالد : لكنا نحن يا أبا عبيدة في حاجة إلى ذلك السلاح .

أبو عبيدة : أنت سيفُ الله ليس عندَ هرقل مثلُك ، والله معَنا .

خالد : إنك عقَدْتَ معهم هذا الصلح وأنت لا تعلم أننا فتحْنا المدينة عنوة من الجانب الآخر ، فمن حقك أن تُطالبهم بإسْقاط هذا الشرط

من العقد .

أبو عبيدة : مَعَاذَ الله يا خالد أن أنقُضَ حَرْفاً مما أبْرَمتُ ، فإن كنت تطمعُ في هذا السلاح فلا سبيلَ إليه . وإن كنت تخاف منه على المسلمين فقد كتبْنا عليهم في العقد أن للمسلمين أن يقْتفُوا آثارَهم بعدَ ثلاثة أيام ، فيأْخذَوا هذه الأسلحة منهم إن لَحَقُوهم .

خالد : (فرحاً) أو قد كتبْتم ذلك في العقد ؟

أبو عبيدة : نَعَم ، لكي نضمَن أنهم يَبعُدون بها عنا .

خالد : أتقولُ بعد ثلاثة أيام ؟

أبو عبيدة : نَعمْ .

خالد : هم الذين اشْتَرَطُوا هذه المُهْلة أم أنتم ؟

أبو عبيدة : بل نحن شرَطْناها ، فقد كانوا يَطْلبون أكثرَ من ذلك .

خالد : فالحمد لله ، الأسلحةُ لنا إن شاء الله .

أبو عبيدة : (في قَلَقٍ) ماذا أنت فاعلٌ يا خالد ؟

خالد : اطْمَئِن يا أبا عبيدة ، فلن أنقُضَ لهم حرْفاً مما أبرمتَه .

(يدنو أحد القساوسة من أبي عبيدة وخالد)

القَسّ : أتأْذَنُون لنا فنأْتيَ لكم بمقاعدَ فتجلسُوا عليها في هذا الفِنَاء ؟

خالد : نعم أيها القَسُّ الجليل ، ونحن لكم شاكرون.

(يسرع جماعة من العمال يحملون المقاعدَ فيضَعُونها في فِنَاء الكنيسة ، فيجلس عليها خالد وأبو عبيدة و مُعَاذ ابن جبل ، ويأتي بقيةُ الأمراء شُرَحبيل بن حَسَنة و يَزيد بن أبي سُفيان وعمرو بن العاص ، فيتصافحون ويُهَنِّىء بعضهم بعضاً ويتحدث بعضهم إلى بعض)

(تُسمع جلبةٌ من وراء الكنيسة ، فطَفِقَ الأمراء يتساءلون . وإذا حَبِيب بن مَسْلَمة الفِهْري يتقدم إلى أبي عبيدة) .

حبيب : هذا توماس صِهْرُ هرقل يُريد أن يَشْكُو

إليك يا أبا عبيدة .

أبو عبيدة : مِمَّ يشكُو ؟ هل أساءَ إليه أحد من المسلمين؟ (يلتفت إلى خالد) هل تأذَنُ يا أبا سليمان ؟

خالد : أدْخِلُوه .

(يدخل توماس مربوط العين اليمنى)

توماس : يا سيدي الأمير .

أبو عبيدة : (يشير إلى خالد) هذا أميرُنا فاشْكُ إليه .

توماس : كلا لا أشكُو إلا إليك، فأنت الذي أمْضَيْتَ معنا الصُّلح .

خالد : لا بأْسَ يا أبا عبيدة ، فلْتستمعْ إلى شكواه .

(ضِرارُ بن الأزور يُشق الصفوفَ ومعه يونُس ويودوقيا ، حتى يقف بهما أمام أبي عبيدة وخالد)

توماس : يا سيدي الأمير ، هذا الفتى أغْوَى ابنتي هذه وأخذَها مني عنوة .

(يتبادل خالد وأبو عبيدة النظر وهما يبتسمان)

أبو عبيدة : أتِلْكَ هي ابنتُك ؟ (يشيرُ إلى يودوقيا وهي معلقةٌ بذراع يونس)

توماس : نَعَم .

أبو عبيدة : فما أراك أخذتها عنوة بل صُلحاً .

(يضحكُ خالدٌ ضحكة عالية)

توماس : لقد خدعَها يا سيدي الأمير وأغواها .

أبو عبيدة : هذا أمرٌ يَخُصكم فما شأننا بذلك ؟

توماس : بل التبِعةُ عليكم في ذلك . هذا الفتى ما كان ليجرؤ على ارتكاب ما صنع ، لولا هذا الجنديُّ العربي ومَنْ معه (يُشير إلى ضِرار)

أبو عبيدة : ضرارَ بن الأزْوَر ، ما خَلَطك بهؤلاء ؟

ضرار : أنا مُكلَّفٌ يا أبا عبيدة بحِماية هذا الفتى من بطْش هذا الرجل .

(ينظر أبو عبيدة إلى خالد كأنه يسأله فيُومِئُ له خالد أن نعم)

أبو عبيدة : هل اعتدى عليكَ هذا الجنديُّ العربي ؟

توماس : نعم ، اقْتحمَ برَجالِه بيتي فأخرج ابنتي منه وأعْطاها لهذا الفتى .

يونس : (ينظر إلى أبي عبيدة) هذا كذبٌ . يا سيدي الأمير ما دخلَ بيتَه أحدٌ ، وإنما وَقَفُوا معي أمامَ البيتِ حتى خرجتْ يودوقيا إلى ، فحاول هُوَ أن يَبْطِشَ بي فحمَوْني منه .

خالد : سَل الفتاةَ يا أبا عبيدة .

أبو عبيدة : (ليودوقيا) ما تقُولين أنت يا فتاةُ ؟

يودوقيا : لقد صدَق يونسُ ، ما أخرجني من بيتِنا أحدٌ . أنا خرجت إليه مِنْ تِلْقاء نفسي لأني أحببتُه وأحبّني ، وكان أبي يَرفُض أن يزوجني له ، ولكني اليوم حُرّة !

أبو عبيدة : (لتوماس) يا توماس ما منعَك أن

(يتبادل خالد وأبو عبيدة النظر وهما يبتسمان)

أبو عبيدة : أتِلْكَ هي ابنتُك ؟ (يشيرُ إلى يودوقيا وهي معلقةٌ بذراعِ يونس)

توماس : نَعَم .

أبو عبيدة : فما أراه أخذها عنوة بل صُلحاً .

(يضحكُ خالدٌ ضحكة عالية)

توماس : لقد خدعها يا سيدي الأمير وأغْواها .

أبو عبيدة : هذا أمرٌ يَخُصكم فما شأننا بذلك ؟

توماس : بل التبِعَةُ عليكم في ذلك . هذا الفتى ما كان ليجرؤ على ارْتكاب ما صنع ، لولا هذا الجنديُّ العربي ومَنْ معه (يُشير إلى ضِرار)

أبو عبيدة : ضرارَ بن الأزْوَر ، ما خَلَطك بهؤلاء ؟

ضرار : أنا مُكلّفٌ يا أبا عبيدة بحِمَاية هذا الفتى من بطْشِ هذا الرجل .

(ينظر أبو عبيدة إلى خالد كأنه يسأله فيُومِئُ له خالد أن نعم)

أبو عبيدة : هل اعتدى عليكَ هذا الجنديُّ العربي ؟

توماس : نعم ، اقْتحمَ برَجالِه بيتي فأخرج ابنتي منه وأعْطاها لهذا الفتى .

يونس : (ينظر إلى أبي عبيدة) هذا كذبٌ . يا سيدي الأمير ما دخلَ بيتَه أحدٌ ، وإنما وَقَفُوا معي أمامَ البيتِ حتى خرجتْ يودوقيا إلي ، فحاول هُوَ أن يَبْطِشَ بي فحمَوْني منه .

خالد : سَل الفتاةَ يا أبا عبيدة .

أبو عبيدة : (ليودوقيا) ما تقُولين أنت يا فتاةُ ؟

يودوقيا : لقد صدَق يونسُ ، ما أخرجني من بيتِنا أحدٌ . أنا خرجت إليه مِنْ تِلْقاءِ نفسي لأني أحْببتُه وأحبّني ، وكان أبي يَرفُض أن يزوجني له ، ولكنني اليوم حُرّة !

أبو عبيدة : (لتوماس) يا توماس ما منعَك أن

تُزوّجها له ؟

توماس : ليس كُفْؤاً لها يا سيدي الأمير .. إنه ليس من الروم .

يودوقيا : أنا حُرة أختارُ زوجي من الروم أو من غير الروم .

أبو عبيدة : كم سِنُّكِ يا فتاةُ ؟

يودوقيا : سبعَ عشرةَ سنةً .

أبو عبيدة : هي إذن رشيدةٌ ، فلا سُلطانَ لك عليها .

(يبدو السرور على الحبيبين يونس ويودوقيا)

توماس : (في اسْتِعْطَاف) أتتْرُكينَني يا يودوقيـــا ؟ أتتْرِكين أباكِ ؟ إن هانَ عليك أن تتركيني فكيف تَتركين والِدتَكِ وليس لها غيرُك ؟ إنها ستموت كَمَداً عليك. أوَ لَيْس في قلبِكِ رحمةٌ ؟

يودوقيا : وأنت يا أبي لِمَ تَعْترضُ سَبيلَ سعادتي !

أَليْسَ في قلبك رحمةٌ ؟

توماس : إني يا بُنيتي إنما أعملُ لسعادتِك .

يودوقيا : إذن فزوّجني ليونس ، فهو حُبي وسعادتي.

توماس : هل يسرُّكِ يا يودوقيا أن يَخُون أبوك قومَه ومليكَه ؟

يودوقيا : ما شأنُ زواجِنا بقَومِك ومَليكِك .؟

توماس : هذا الفتى جاسوسٌ يا يودوقيا، فكيف أزوّج ابنتي لجاسُوسٍ ؟

يودوقيا : جاسوس ؟

توماس : ألَم تفْهمِي بعدُ أنه جاسوسٌ ؟ انضمّ إلى الجيش المحاصر للباب الشرقيّ ، وما هي إلا أيامٌ حتى اقتحَمُوه ودَخلوا المدينةَ عنوة . أفتشُكّين بعدُ أنـــه جاسوسٌ باعَ نفسه للْفاتِحين ؟

(يتغيّر وجهُ الفتـــاة ثم تبْتعد عن يونسَ

لِتنضمَّ إلى أبيها)

يونس : يودوقيا ! لا تصدِّقيه يا يودوقيا ، إنه دائماً يكذِب . هؤلاء المسلمون ليسُوا بحاجةٍ إلى مثلي لينْتصرُوا به ، فقد هَزَموا جيوشَ الروم في بُصْرى وأجْنَادِينَ ومَرْج الصُفَّر وما كنتُ أنا يا يودوقيا معهم .

توماس : هَلُمِّي يا بُنَيتي فإن أمَّكِ في انتظارِك .

يونس : يودوقيا ؟ يودوقيا ! ستَنْدَمين يا يودوقيا . إنه سيعذِّبك ويُزوِّجك بمن لا تُحبين . يودوقيا !

(تسير يودوقيا مع توماس وهي باكيةٌ دون أن تقولَ كلمة)

خالد : هَوِّن عليك يا يونُس .

يونس : (ينْفجِر باكياً) أنصِفْني يا أميرَ العرب من هذا الظالِم القاسِي القلب .

خالد : تجلَّدْ يا يونس .

يونس : أرْجُوك يا سيدي الأمير .

أبو عبيدة : (ليونس) الآن وقد اختَارتْ أباهـا فلا سبِيلَ لك عليها ولا عليه .